الدرس السادس :

المقطع الأول :

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله :

اليوم معنا مجلس جديد من مجالس شرح كتاب التوحيد , وصلنا عند الباب الخامس , قال المؤلف رحمه الله :" باب تفسير التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله " يعني : هذا الباب معقود لبيان معنى التوحيد , هذا معنى التفسير , التفسير : الكشف والبيان والإيضاح , فهو باب معقود لتفسير معنى التوحيد , التوحيد تقدّم معنا تفسيره , وشهادة أن لا إله إلا الله تدلّ على التوحيد , شهادة أن لا إله إلا الله , كذلك تقدّم معنا تفسيرها وبيان معناها , وهذا العطف : عطف مترادفين , المعنى واحد , معنى التوحيد ومعنى شهادة أن لا إله إلا الله واحد , إلا أن الشهادة هي تدلّ على التوحيد , على كلٍّ المراد واحد , وهو : تفسير .. المراد من هذا الباب , هو : تفسير معنى كلمة التوحيد , ربّما يقول قائل : قد تقدّم معنا تفسير التوحيد , وذكر آيات في بداية الكتاب فسّر فيها التوحيد , وإنما قال أهل العلم : أراد بهذا _ يعني _ الباب : زيادة إيضاح , وزيادة بيان , وذكر من الأدلة ما _ يعني _ يوضّح الطريقة _ يعني _ تجعله أكثر كشفاً , أكثر إيضاحاً , خصوصاً في المسائل التي _ يعني _ حصل فيها الشرك أكثر في الزمن الذي نزلت فيه رسالة النبي صلة الله عليه وعلى آله وسلم , فالمقصود في النهاية من هذا الباب هو : تفسير معنى التوحيد , قال المصنّف رحمه الله تعالى :" {أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ} " : هذه الآية , المقصود منها _ عند قوله :{ أولئك الذين يدعون } _ يعني : القوم الذين يعبدون بعض الناس أو بعض الخلق ويرغبون إليهم بالدعاء , ويخضعون ويتذلّلون لهم , هم أنفسهم الذين يخضعون لهم _ أي المخضوع لهم _ يعني لو قلنا مثلاً : الذين يعبدون عيسى عليه السلام , الذين يعبدون مريم , الذين يعبدون عزيراً , أو الذين يعبدون الجنّ الذين كانوا في فترة نزول الوحي , كان بعض العرب يعبدون أقواماً من الجن والبعض كانوا يعبدون الملائكة , الملائكة والجن وعيسى ومريم , هؤلاء الذين يعبدونهم هم أنفسهم يخضعون ويتضرّعون إلى الله { ويبتغون إلى ربّهم الوسيلة } يعني : يطلبون إلى الله القربة سبحانه وتعالى , الوسيلة : الشيء الذي يوصل إلى الله , وهذا الشيء الذي يوصلهم إلى الله هو القربة , فهم أنفسهم يخضعون ويتذلّلون لله سبحانه وتعالى ويتقربون إليه , فكيف بعد ذلك تذهبون أنتم وتخضعون وتتذلّلون إليهم ؟ وهم أصلاً بحاجة إلى معونة الله سبحانه

وتعالى وإلى القربة إلى الله سبحانه وتعالى , يعني : فاقد الشيء لا يعطيه , هم أنفسهم بحاجة إلى الله سبحانه وتعالى وبحاجة إلى القربة إلى الله سبحانه وتعالى , فكيف أنت تذهبون وتخضعون وتتذلّلون إليهم وتطلبون وتدعونهم من دون الله سبحانه وتعالى ؟ هذا باطل , هذا معنى الآية , لكن : ما المقصود منها في هذا الموطن بالذات ؟ المقصود من هذا , قال أهل العلم , أن التوحيد لا يتمّ حتى تترك عبادة غير الله سبحانه وتعالى , أن تترك دعاء غير الله سبحانه وتعالى لأن دعاء غير الله هو شرك , والله سبحانه وتعالى ذكر هذه الآية منكراً على الذين كانوا يدعون غيره فأنكر عليهم ذلك , وهذا هو الشرك , دعاء غير الله هو الشرك , والأشياء بضدّها تُعرف , والأشياء بضدّها تُعرَف , وتعرف الأشياء بضدّها , فإذا ذكرت الضدّ عُرِف الشيء , يعني : الآن ضد التوحيد هو الشرك , دعاء غير الله شرك , إذاً المقصود هو أيش ؟ التوحيد , فإذا تركنا دعاء غير الله سبحانه وتعالى وجعلنا الدعاء لله سبحانه وتعالى فقط , عندئذٍ نكون موحّدين , فهذا هو المقصود بالتوحيد , فالتوحيد لا يتمّ إلا بالبراءة من الشرك , هذا معنى التوحيد , معنى التوحيد : أن تدعو الله سبحانه وتعالى , أن تعبد الله وحده وألا تشرك معه غيره من الخلق الذين هم بحاجة إلى الله سبحانه وتعالى , وهم بحاجة إلى القربة إلى الله سبحانه وتعالى , هذا معنى الآية وهو المقصود منها , والله سبحانه وتعالى أعلم .

ثم قال المؤلف رحمه الله : " وقوله: {وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ – إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ – وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ} " هنا هذه الكلمة _ كلمة إبراهيم الخليل عليه السلام _ هي مُفسّرةٌ تماماً لمعنى كلمة التوحيد (لا إله إلا الله) , مطابَقةٌ واضحة , { وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه } : أبوه وقومه كانوا يعبدون الأصنام , ويعبدون الكواكب , فقال لهم إبراهيم , وكانوا يعبدون الله أيضاً ويعبدون أشياء متعددة , فقال لهم إبراهيم : { وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ } : أنا متبرّئٌ من كل الذين تعبدونهم , أيش معنى البراءة ؟ البراءة هي التخلية , يعني أنا مُتَخَلٍّ عن كل ما عبدتم , والبراء : عندما تتبرّأ من الشيء , معناه : أنك تتركه وأنك تعاديه وأنك تبغضه , ها معنى البراء , فهنا هو يقول : أنا بريء من كل ما تعبدون , يعني أنا تخلّيت عنها , تركتها , هذه الأشياء التي تعبدونها , من أصنامٍ وكواكبٍ وغيرها , كلها قد تركتُها وعاديتها وأُبغضها , ثم قال بعد ذلك : { إلا الذي فطرني } , إذاً تبرّأ إبراهيم عليه السلام من جميع المعبودات التي كانوا يعبدونها ما عدا الذي فطره , ومن الذي فطره ؟ هو الله , معنى الذي فطره : يعني الذي خلقه , إذاً تبرّأ من جميع المعبودات إلا الله سبحانه وتعالى لم يتبرّأ منه ,

وهذا معنى كلمة التوحيد , أن تترك عبادة كل شيء إلا الله سبحانه وتعالى فقط , لا إله إلا الله : لا معبود بحقٍّ إلا الله , { ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ } كلها كلمات بنفس المعنى , { إلا الذي فطرني } يعني : أترك عبادة كل شيء إلا عبادة الله سبحانه وتعالى فقط , ولم يقل (إلا الله) لأنه أراد أن يشير إلى إشارة واضحة يفهمها أولئك القوم , أراد أن يقول لهم بأن الذي يستحقّ عبادتي هو الذي خلقنني , فما قال لهم (إلا الله) قال : { إلا الذي فطرني } وبذلك يبيّن لهم العلة التي من أجلها لا تستحق أصنامهم وكواكبهم وغيرها العبادة مع الله سبحانه وتعالى لأنها لم تخلقه , ومن لم يخلق لا حق له في العبادة , فهذا إذاً معنى كلمة لا إله إلا الله , أي لا معبود بحقّ إلا الله , أترك عبادة كل شيء إلا عبادة الذي خلقني فهو الذي يستحق عبادتي وهو الذي سيهدينِ , سيوفّقني وسيبيّن لي طريق الحق من طريق الضلال , { وجعلها كلمة باقية في عقبه } كلمة التوحيد بقيت في ذريته , { لعلهم يرجعون } إلى الله سبحانه وتعالى ويتوبون , نعم .

ثم قال المؤلف رحمه الله :" وقوله: {اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ والمسيح بن مريم } " هنا هذه الآية يقول فيها : { اتخذوا أحبارهم } الحَبر : هو العالم , يعني أهل الكتاب اتخذوا علماءهم ورهبانهم , الراهب : هو العابد , فاتخذوا علماءهم وعُبّادهم أرباباً من دون الله , فتنة الناس تكون في هذين الصنفين من الناس , في العلماء وفي العُبّاد , لأنهم يعظّمون العلماء ويعظّمون العباد , فيطيعونهم مع الله سبحانه وتعالى إذا غيّروا لهم شرع الله ودينه أطاعوهم وغيروا الشرع والدين , إذا أمروهم بمعصية أن يفعلوها أطاعوهم , وإذا نهوهم عن واجب من واجبات الشرع انتهوا , فعبدوهم مع الله سبحانه وتعالى , فهذه فتنة الناس , تكون في العلماء وتكون في العباد , فالواجب الحذر من ذلك والاعتدال مع العلماء ومع العباد , نحبّهم , نحترمهم , إذا كانوا من أهل الحق , نحبهم نحترمهم , نواليهم , لكن لا نتجاوز الحدّ فيهم , لا إفراط ولا تفريط في حقهم , قال هنا : { اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله } يعني : عبدوهم مع الله سبحانه وتعالى , والرب هنا بمعنى المعبود , { أرباباً من دون الله } يعني من غير الله سبحانه وتعالى , { والمسيح بن مريم } كذلك عبدوه مع الله سبحانه وتعالى , وقالوا هو ثالث ثلاثة , فلما عبدوا أحبارهم ورهبانهم وخضعوا وتذلّلوا لهم وأطاعوهم في معصية الله سبحانه وتعالى , فقد عبدوهم مع الله سبحانه وتعالى فأشركوا به فلم يحقّقوا معنى التوحيد , فالتوحيد هو ألا تتخذ رباّ مع الله سبحانه وتعالى , هذا معنى التوحيد ,

وسيأتي إن شاء الله مزيدُ تفصيلٍ وبيان لهذه الآية , وسيعقد لها المصنف إن شاء الله باباً مستقلّاً وسنشرحها إن شاء الله هناك شرحاً وافياً , نعم .

ثم قال المصنف رحمه الله : " وقوله: {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ} " { من الناس } يعني : بعض الناس , { يتخذ من دون الله } يعني : من غير الله سبحانه وتعالى , سواء كان هذا الذي اتّخذه نبيّاً أو وليّاً أو ملكاً أو حجراً أو شجراً , هذا كله يشمل من الناس من يتخذ , هذه , هؤلاء الأشخاص أنداداً من دون الله { من يتخذ من دون الله أنداداً } يعني : أمثالاً , يجعلهم مماثلين لله تبارك وتعالى , فيُحبّ مثلاً الحسين بن علي محبة مثل محبته لله تبارك وتعالى , يحب عيسى عليه السلام , يحب علي بن أبي طالب كمحبّته لله سبحانه وتعالى , قد اتّخذ هذا عيسى أو الحسين أو علي ندّاً لله تبارك وتعالى , جعل مثل الله سبحانه وتعالى في محبّته { يحبونهم كحبّ الله } كما أنهم يحبّون الله , يحبّون هؤلاء الأنداد , يجعلونهم مماثلين لله سبحانه وتعالى في محبّتهم , خضوعهم وتذلّلهم لهم , وإذا أحببته كمحبة الله , أطعته كطاعتك لله , خضعت وتذلّلت له كخضوعك وتذلّلك لله , عبدته مع الله كعبادتك لله تبارك وتعالى , فما بالك بمن يحب أولياء الله أو من هو معظّمٌ في نفسه أعظم أو أكثر من محبّته لله تبارك وتعالى , شركُ ذاك أعظم من شرك هذا , فما بالك بمن لا يحب الله أصلاً , وإنما محبته لمعبوده , هذا معنى الشرك وهذا معنى التوحيد , فمن يفعل هذا يتخذ من دون الله أنداداً يحبهم كحب الله , هذا مشرك , والتوحيد أن تحب الله سبحانه وتعالى محبة خالصة ولا تشاركه فيها أحد , هذا معنى التوحيد , وإذا أحببت الله محبة تامّة كنا ينبغي ستحبّ كل من يحبه الله سبحانه وتعالى وكل ما يحبه الله سبحانه وتعالى , الطاعات , القُرب , البعد عن المعاصي والذنوب , الأولياء , الصالحين , الأنبياء , تحبهم لمحبة الله سبحانه وتعالى , هذا معنى المراد من هذه الآية , فمعناها : تحقيقٌ لكلمة التوحيد , فمن كان موحّداً , لا يتّخذ من غير الله ندّاً يحبه كمحبة الله سبحانه وتعالى

قال المؤلف رحمه الله :" وفي الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم: أنه قال: «من قال لا إله إلا الله، وكفر بما يعبد من دون الله حرم ماله ودمه، وحسابه على الله عز وجل» " من قال : لا إله إلا الله : أي لا معبود بحق إلا الله , " وكفر بما يُعبد من دون الله " يعني : جحده وأنكره وتبرّأ منه , هذا معنى "كفر بما يعبد من دون الله " , بما يعبد : يشمل كل شيء من ملكٍ مقرّبٍ ونبيّ مرسل ووليّ صالح وحجر وشجر معظّم

, كل شيء , يكفر به : يكذّب بعبادته ولا يقبله أن يكون معبوداً مع الله سبحانه وتعالى , " وكفر بما يُعبد من دون الله " من غير الله سبحانه وتعالى , فيؤمن فقط بعبادة الله وحده لا غير , المؤلف ساق الحديث هذا هنا كي يبيّن لنا أن التوحيد لا يتمّ إلا بالبراءة من الشرك وهذا حق , فالذين يعبدون الله كُثُر , من المشركين , حتى المشركون كانوا يعبدون الله سبحانه وتعالى لكنهم كانوا يشركون معه غيره , يعني : يعبدونه ويعبدون معه غيره , فلا يصحّ هذا , " من عمل عملاً أشرك معي فيه غيري تركته وشركه " فالله سبحانه وتعالى لا يقبل منا أن نعبده وأن نعبد معه غيره , يريد منا أن نعبده وحده فقط , لذلك ساق المؤلف هذا الحديث لأن فيه " من قال لا إله إلا الله، وكفر بما يعبد من دون الله " هذه تفسير معنى كلمة التوحيد , أنه لا معبود بحق إلا الله , ولا ينفع أن تعبد الله فقط وتعبد معه غيره , لا , لا بد أن تعبد الله وأن لا تعبد معه غيره وأن تتبرّأ من كل معبود سواه , ومن فعل ذلك حَرُم ماله ودمه وحسابه على الله , يعني في الدنيا : من أظهر هذا في الدنيا فهو مسلم , وإذا حصل منه تقصير حسابه على الله سبحانه وتعالى وإن كان , يعني : ما في قلبه ليس كما هو ظاهره , فحسابه على الله سبحانه وتعالى , نحن ليس لنا من الناس إلا ما أظهروا لنا , الظاهر فقط , الباطن هذا لا علاقة لنا به , هذا الله سبحانه وتعالى الذي يحاسب عليه فمن أظهر لنا خيراً عاملناه بناءاً على ذلك ومن أظهر لنا شراً عاملناه بناءاً على ذلك , أما ما في باطنه فهذا أمره إلى الله سبحانه وتعالى , ثم قال المؤلف رحمه الله : " وشرح هذه الترجمة: ما بعدها من الأبواب " : شرح هذه الترجمة : يعني تفسيرها وبيانها , أيضاً كل ما سيأتي من الأبواب القادمة إن شاء الله له تعلّقٌ بتفسير كلمة لا إله إلا الله في هذا الكتاب , كتاب التوحيد , فيوضّح معنى لا إله إلا الله , ففيه بيان أشياء كثيرة من الشرك الأكبر ومن الشرك الأصغر ومن مكمّلات التوحيد ستأتي إن شاء الله بعد هذا الباب , فكل ما سيأتي الآن من الأبواب التي بعد هذا لها تعلّقٌ بشرح كلمة لا إله إلا الله , هذا ما أراده المؤلف من هذا المعنى , فمن فهم معنى كلمة التوحيد وعرف الشرك , حقّق التوحيد , وتبيّن له المراد من هذا الكتاب , ومن عرف الشرك الأصغر والشرك الأكبر تبينت له الأمور واتّضحت وبقي عليه العمل فقط , فنسأل الله سبحانه وتعالى أن يوفّقنا وإياكم لطاعته , وأن يمنّ علينا بالعلم النافع والعمل الصالح , وسبحانك اللهم وبحمدك أشهد ألا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك .